الدرس الثلاثون

تفسير سورة المدثر [١ : ٦]

سورة (المدثر)، سورةٌ مكية من أوائل ما نزل من القرآن ولها مقاصد.

مقاصد السورة:

- إثبات رسالة النبي ﷺ وما تتضمنه من النذارة.
- بيان حقيقة القرآن.
- إثبات المعاد.

ولا ريب أن هذه المقاصد من المقاصد العظام التي كان النبي ﷺ يلح عليها في الفترة المكية، ويجاهد عليها كفار قريش.

{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦)}

يقول الله ﷻ في مستهلها: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾[المدثر:١].

خطابٌ، ونداءٌ من الله ﷻ لنبيه ﷺ الذي تغشّى بثوبه.

﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾[المدثر:٢].

قال العلماء: نُبِئ النبي ﷺ بـ (اقرأ)، وأُرسِل بـ (المدثر)، وذلك أن بين النبوة والرسالة، فرق، وقد غلط من قال: إنه لا فرق بين النبي والرسول، والدليل على وجود الفرق، أن الله تعالى قال في سورة (الحج): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾[الحج:٥٢]، فدلَّ ذلك على أن الرسول غير النبي، لكن يجمعهما معنى الإرسال؛ لقوله:

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ﴾[الحج:٥٢]، فالرسول مُرسل والنبي مرسل، لكن بينهما فرق، ومما يدل على وجود فرق قوله تعالى في وصف موسى وإسماعيل: {وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} [مريم: ٥١].

وقد اختلف العلماء في الفرق بين النبي والرسول، فمن أشهر الأقوال في هذا:

القول الأول: أن النبي من أوحي إليه بشرع و لم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول من أوحي إليه بشرع وأُمِر بتبليغه، وهذا القول قد قال به جمعٌ من العلماء، لكن يشكل عليه: كيف يوحي الله تعالى إلى عبدٍ من عباده بشرع، ثُمَّ لا يأمره بالتبليغ، إذا كان الله تعالى قد أخذ العهد والميثاق على العلماء وهم أدنى رتبة من الأنبياء بالتبليغ، فكيف بالأنبياء؟!

يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران:١٨٧]، وقد أخبر النبي ﷺ : (بأن يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ)(١)، مما يدل على أنه قد دعاه، فلا يتوجه هذا التفريق.

القول الثاني: إن الرسول من أُوحِي إليه بشريعةٍ جديدة وكتابٍ جديد وأمر بتبليغه، وأن النبي من أوحي إليه بشرع رسولٍ قبله وأُمِرَ بتجديده، وهذا القول له حظٌ من النظر؛ لأنَّ الناظر في أنبياء بني إسرائيل يجد أنهم يعملون بالتوراة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾[المائدة:٤٤]، فهم يحكمون بالتوراة التي أُنزِلت على موسى عليه السلام، فهم بمنزلة المجددين.

غير أنه يشكل أيضًا على هذا التفريق قول الله ﷻ في قصة مؤمن آل فرعون، ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾[غافر:٣٤]، فسمى يوسف رسولًا، مع أن يوسف كان يعمل

(١) أخرجه احمد رقم (١١٥٥٨).

بشريعة يعقوب، و لم يكن قد أتى بشرعٍ جديد؛ حتى إنه قال لإخوته لما أراد أن يستبقي بنيامين: ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[يوسف:٧٤-٧٥]، كما في شريعة يعقوب.

وقال: {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ} [يوسف: ٧٦]، فلم يكن قد أتى بشرعٍ جديد ومع ذلك سماه الله رسولًا.

بل إن كل من ذُكِروا في القرآن رسل، لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[غافر:٧٨]، فجميع المقصوصين على النبي ﷺ رسل.

القول الثالث: ولعله أقربها إلى الصواب، قول من قال: إن الرسول من يبعث إلى قومٍ مخالفين، وإن النبي من يُبعث إلى قومٍ موافقين، فالرسول من يُبعث إلى قومٍ مخالفين يدعوهم إلى الدخول في الدين، والنبي يبعث في قومٍ مؤمنين موافقين لتعليمهم والحكم بينهم، والقضاء، ونحو ذلك.

وهذا عند التأمل أصح الأقوال، فإن المتتبع المستقرئ يجد أن الأنبياء يكونون في أقوامهم مجددين لدينهم، بينما الرسل يدعون أقوامًا آخرين. حتى يوسف عليه السلام كان يدعو آل فرعون، إلى دين الله، وداود وسليمان كانا يقاتلان في سبيل الله ويدعوان الأمم الأخرى؛ فقد دعا سليمان ملكة سبأ. وأنبياء بني إسرائيل من جنس من ذكر الله تعالى في سورة البقرة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[البقرة:٢٤٦]، فذلكم النبي كما في كتبهم: هو صموئيل، ويسمون حقبة الأنبياء بين موسى وداود عهد القضاة، لأنهم كانوا يقضون بين الناس، بوحي من الله، وعمل بالتورة.

قوله:﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾[المدثر:٢].

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

النذارة هي الإخبار بالأمر المخوف، والبشارة هي الإخبار بالأمر السار، وأنبياء الله مبشرين ومنذرين، ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[النساء:١٦٥]، وإنما غلَّب النذارة في هذه الحال؛ لأنَّ اتقاء المرهوب مقدمٌ على تحصيل المطلوب فحال القوم يستدعي النذارة قبل البشارة؛ لكي يتخلو عما هم فيه، وأمره بالقيام يدل على أن الدعوة تحتاج إلى جهد، وأن ينفض الإنسان عنه الدعة والسكون.

قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[المدثر:٤-٥].

هذا هي الأوامر الثلاثة مضامين الرسالة، أولها تعظيم الرب ﷻ، فلا بُدَّ للداعية إلى الله ﷻ من زرع تعظيم الرب في القلوب، لا ينبغي أن يتشاغل الداعية إلى الله ﷻ بالفروع والمسائل الهامشية قبل أن يزرع تعظيم الله وإجلاله في القلوب؛ لأنَّ هذا هو أساس العبودية﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي: عظِّم.

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾، الطهارة يراد بها الطهارة الحسية والطهارة المعنوية، الطهارة المعنوية تكون من الشرك والبدعة، والطهارة الحسية تكون من النجاسات والقذارات، وكلا الامرين مطلوب، وإنما عبر بالثياب لأنها هي ما يلابس الإنسان، والعرب تعبر بهذا، وقد تكني به عن أمرٍ معنوي كما قال القائل:

فإني بحمد الله لا ثوب ذلةٍ لبستُ ولا من ريبةٍ أتقنعُ

فالمقصود بالثوب هنا ليس قماشًا يكتسيه، وإنما حالٌ يتلبس بها، فأمر الله نبيه بالتخلي والتطهر من أمرين:

أحدهما: التطهر من النجاسة المعنوية وهي الشرك، وليس ذنبٌ أعظم من الشرك ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]، ولا أشأم عاقبة ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢]،ولا أسوأ حالًا: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ

﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج:٣١]، فهذا أعظم ما يجب أن يُتطهر منه، وما عُبِد الله بحسنةٍ أفضل من التوحيد، ولا عُصِي الله بذنبٍ أعظم من الشرك.

النوع الثاني: التطهر الحسي، وهو ان يتطهر الإنسان من النجاسات والقاذورات، كالبول والغائط وما شابههما، فإنَّ ديننا مبنيٌ على النزاهة والطهارة؛ ولهذا كانت الطهارة من الحدث ورفع الخبث من شروط صحة الصلاة، فلا تصح صلاة إنسان إلا بالطهارة بإزالة الخبث عن ثوبه وبدنه وبقعته، ورفع الحدث بغسل أعضاء الوضوء الأربعة.

ويدخل في ذلك رفع الإزار حتى لا يكون مسبلاً فيمس الأرض وتلحقه القاذورات والنجاسات، فقد ذكر بعض العلماء أن قوله (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) المدثر؛ آية ٤. أن يرفع إزاره فلا يُسبله ولما رأى عمر –رضي الله عنه– غلامًا من الأنصار جاء يعوده وهو في مرض موته إثر طعنته، ورأى ثوبه مسترخيًا، أو رأى إزاره مسترخيًا قال: (يَا ابْنَ أَخِي ارْفَعْ ثَوْبَكَ، فَإِنَّهُ أَبْقَى لِثَوْبِكَ، وَأَتْقَى لِرَبِّكَ)[٢].

ولا ريب أن الإسبال لا يجوز؛ بل هو من الكبائر.

قوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾: (الرجز) هي الأصنام، وفي قراءة بالسين، (الرجس)، كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[الحج:٣٠]، وقال بعضهم: إذا كانت بضم الراء بمعنى الأصنام، وإذا كانت بكسرها، فهمي بمعنى النجاسة، فأمر الله نبيه ﷺ بهجر عبادة الأصنام، ولا ريب أنه لا يمكن عبادة الله ﷻ إلا بالتخلي عن الشرك. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، فلا يمكن عبادة الله إلا باجتناب الطاغوت، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٧٠٠).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[البقرة:٢٥٦]، فمن أشرك بالله وادعى التوحيد لن ينفعه توحيده ولو ملأ الجو تهليلًا.

من أشرك بالله بأن دعا غير الله، أو استغاث بغير الله، أو ذبح لغير الله، أو نذر لغير الله، فهو مشركٌ بالله ولو ملأ الجو بلا إله إلا الله، لا بُدَّ من التخلية قبل التحلية، التخلية بمعنى تنقية القلب وتطهيره من أدران الشرك، والتحلية بعمارته ببهجة التوحيد.

قوله: ﴿فَاهْجُرْ﴾، أي: اجتنب وانبذ، وهذا دليل على أنه لا بُدَّ من المجاهرة والاستعلان بذلك، وأن هذه ليست من القضايا المصلحية القابلة للتأجيل، بأن يقول الإنسان: لا أبادؤهم بهذا، لا أصدمهم بإنكار معبوداتهم وشركياتهم، كلا؛ هذه قضية مفصلية، مبدئية أولية لا يجوز أن يقدم عليها شيء.

﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾[المدثر:٦].

أدب الله تعالى نبيه ﷺ بهذا الأدب، فقال: ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾، وقد قال العلماء في توجيهها أقوالًا:

القول الأول: لا تُمُنَّ وتُدِلَّ بعبادتك على الله ﷻ وتستكثرها، وهذا خطابٌ له ولغيره. فإن من الناس من إذا عمل عملًا صالحًا داخله شيءٌ من الزهو والعجب بنفسه، وظن أنه أتى أمرًا عظيمًا، فيقال له: ﴿ وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾، المن لله، والفضل لله، {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٦٤]، وقال: ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾[الحجرات:٨]، فالمن لله، فلا تستكثر عملك على ربك، فإنه يعود عليك، وهو وفقك إليه.

القول الثاني: لا تطلب عوضًا وأجرًا على دعوتك؛ كما قال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[ص:٨٦]، ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾[هود:٥١].

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله